سورة الحشر

هى مدنية ، وعدة آيها أربع وعشرون نزلت بعد سورة البيّنة .

ومناسبتها ماقبلها من وجوه :

(١) إن فى آخر السالفة قال : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وفى أول هذه قال : « فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » .

(٢) إن فى السابقة ذكر من حادَّ الله ورسوله ، وفى أول هذه ذكر من شاقَّ الله ورسوله .

(٣) إن فى السالفة ذكر حال المنافقين واليهود وتولى بعضهم بعضا ، وفى هذه ذكر ماحل باليهود ، وعدم غناء تولى المنافقين إياهم . « روى أن بنى النضير كانوا قد صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولاله ، فلما ظهر يوم بدر قالوا هو النبى الذى نعت فى التوراة ، لاتردّ له راية ، فلما هُزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكبا إلى مكة فحالفوا عليه قريشا عند الكعبة ، فأخبر جبريل النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فأمر بقتل كعب فقتله محمد بن سلمة غيلة وهو عروس ، وكان عليه الصلاة والسلام قد اطلع منهم على خيانة حين أتاهم يستعينهم فى دية المسلمين من بنى عامر عند مُنْصرفه من بئر مَعُونة ، إذ همّوا بطرح حجر عليه فعصمه الله .

وبعد أن قتل كعب بأشهر تهيأ المسلمون لقتالهم وساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم حتى إذا نزل فى بنى النضير وجدهم ينوحون على كعب ، وقالوا قد نا نبكى شجونا ، ثم ائتمر أمرك ، فقال : اخرجوا من المدينة ، فقالوا الموت أقرب إلينا من ذلك ، فتنادوا بالحرب ، ودس المنافقون عبد الله بن أبىّ وأضرابه إليهم ألا يخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ،

وإن أُخْرِجْتم لنخرجنَّ معكم ، فحصنوا الأزقة وحاصروهم إحدى وعشرين ليلة ، وقذف الله الرعب فى قلوبهم و أيسوا من نصر المنافقين فطلبوا الصلح ، فأبى إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ماشاءوا من متاعهم ، فجلَوْا إلى الشام ، إلى أريحاء وأذرعات ، إلا أهل بيتين منهم هما آل أبى الحُقيق وآل حُيىّ بن أخطب ، فإنهم لحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة بالحيرة ، وقبض النبى صلى الله عليه وسلم أموالهم وسلاحهم ، فوجد خمسين درعا وخمسين بيضة » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ للهِ مَافِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَاظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ ، فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَاقَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ (٥) .

شرح المفردات

الذين كفروا : هم بنو النَّضير (بزنة أمير) قبيلة عظيمة من اليهود كبنى قُرَيظة ، والحشر : إخراج جمع من مكان إلى آخر ، ولأول الحشر : أى فى أول حشرهم ،

أى جمعهم وإخراجهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى بلاد الشام ، وآخر حشر: إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام ، والحصون : واحدها حصن وهو القصر الشاهق والقلعة المشيدة ، مانعتهم حصونهم من الله : أى مانعتهم من بأسه وعقابه ، فأتاهم الله : أى جاءهم عذابه ، من حيث لم يحتسبوا: أى من حيث لم يخطر لهم ببال ، وقَذْفُ الشيء: رميه بقوة ، والمراد هنا إثباته وركزه فى قلوبهم ، والرعب : الخوف الذى يملأ الصدر يخربون : أى يهدمون ، فاعتبروا : أى فاتعظوا ، والاعتبار: النظر فى حقائق الأشياء وجهات دلالتها ، ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها ، وأجليت القوم عن منازلهم : أى أخرجتهم منها ، وجلوا : خرجوا ، وقد فرقوا بين الإجلاء والإخراج من وَجهين : أن الأول لايكون إلا لجماعة ، والثانى : يكون لواحد ولجماعة ، وأن الأول ما كان مع الأهل والولد والثانى يكون مع بقائهما ، واللينة : النخلة ما لم تكن عجوة .

المعنى الجملى

علمت مما سلف أن اليهود نقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وظاهروا المشركين اتكالا على مساعدة المنافقين لهم ومناعة حصونهم، فتهيأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار لقتالهم ، فلما علموا بقدومه حصنوا الأزقة فحاصرهم عليه الصلاة والسلام عدة أيام وألقى الله الرعب فى قلوبهم ، فطلبوا الصلح فأبى إلا الجلاء وأخرجهم من حصونهم بعد تخريبها بأيديهم وأيدى المؤمنين ، ولولا جلاؤهم لعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد ، وما كان ذلك إلا بإذن الله وتقديره للأمور وفق الحكمة والمصلحة .

الإيضاح

(سبح لله مافى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم) أى إن جميع مافى السموات والأرض من الأشياء يقدسه سبحانه ويمجده ، إما باللسان أو بالقلب أو بدلالة الحال لانقياده لتصريفه له كيف شاء لامعقّب لحكمه .

ونحو الآية قوله تعالى : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

ثم بين بعض آثار عزته ، وأحكام حكمته فقال :

(هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) أى هو الذى أجلى بنى النضير من المدينة بقوة عزته ، وعظيم سلطانه ، وكان هذا أول مرة حشروا فيها وأخرجوا من جزيرة العرب لم يصبهم الذل قبلها ، لأنهم كانوا أهل عزة ومنعة ، وآخر حشر لهم إجلاء عمر رضى الله عنه لهم من خيبر إلى الشام .

ثم بيَّنَ فضل الله على المؤمنين ، ونعمته عليهم فى إخراج عدوهم من ديارهم ولم يكن ذلك منتظراً فقال :

(ماظننتم أن يخرجوا) أى ماخطر لكم ذلك أيها المؤمنون ببال ، لشدة بأسهم ومنعتهم ، وقوة حصونهم ، وكثرة عَددهم وعُددهم .

وفى ذكر هذا تعظيم للنعمة ، فإن النعمة إذا جاءت من حيث لاتُرتقَبُ كانت مكانتها فى النفوس أعظم ، وكانت بها أشد سروراً وابتهاجاً .

والمسلمون ماظنوا أن يبلغ الأمر بهم إلى إخراج اليهود من ديارهم ، ويتخلصوا من مكايدهم وأشراكهم التى مافتئوا ينصبونها المؤمنين ، وبذا قضى الله عليهم قضاءه الذى لامردّ له ، وصدق الله (لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى) .

ثم ذكر ما جرّأهم على مشاكسة النبى صلى الله عليه وسلم وتأليب المشركين عليه فقال :

(وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) أى وظن بنو النضير أن حصونهم المنيعة القوية تمنعهم من أن ينالهم عدو بسوء ، فلا يستطيع جيش مهما أوتى من بأس أن يصل إليهم بأذى ، فاطمأنوا إلى تلك القوة ، وأوقدوا نار الفتنة بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمشركين ، طمعاً فى القضاء عليه ، بعد أن أصبحت له الزعامة

الدينية والسياسية فى المدينة ، وسيكون فى ذلك القضاء عليهم لو صبروا ، وقد غبروا دهراً وهم أصحاب السلطان فيها ، لأنهم من وجه أهل كتاب ، ومن وجه آخر هم أرباب النفوذ المالى فيها ، وأصحاب الثروة والجاه العريض .

ثم أكد ماسلف وقرره بقوله :

(فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) أى فجاءهم بأس الله وقدرته الذى لا تُدْفع من حيث لم يخطر ذلك لهم ببال ، وصدق فيهم ماقيل : قد يُؤتَى الحَذِر من مأمنه . فأجلاهم النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة ، فذهبت طائفة منهم إلى أَذْرِعات من أعالى الشام ، وطائفة إلى خَيْبَر على أن يأخذوا معهم ماحملت إبلهم .

ثم بين أسباب هذا الاستسلام السريع ، والنزول على حكم الرسول على مناعة الحصون وكثرة العَدد والعُدَد فقال :

(وقذف فى قلوبهم الرعب) أى بثّ فى قلوبهم الهلع والخوف حين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إليهم ، فلم يستطيعوا إلى المقاومة سبيلا .

ومما كان له بالغ الأثر فى هذا الخوف قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غِيلةً ، وما رأوه من كذب وعد عبد الله بن أُبىّ رأس المنافقين فى نصرتهم ، وإرسال المدد إليهم ، وتغريره بهم ، وتوسيع مسافة الخلف بينهم وبين الرسول ، فهم قد أوقدوا نارا كانوا هم حطب لهيبها ، وفتحوا ثُغْرَةً برءوسهم قد سدّوها ، ووقعوا فى حفرة هم الذين كانوا قد حفروها ، فابتلعتهم لا إلى رجعة .

ثم بين مدى ما لحقهم من الهلع والجزع ، وكيف حاروا فى الدفاع عن أنفسهم فقال :

(يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين) أى يخربون بيوتهم بأيديهم ليسدوا بما نقضوا منها من الخُشُب والحجارة أفواه الأزقة حتى لايدخلها العدو ، وحتى لاتبقى صالحة لسكنى المؤمنين بعد جلائهم ، ولينقلوا بعض أدواتها التى تصلح للاستعمال فى جهات أخرى كالخُشُب والعَمَد والأبواب ، ويخربها المؤمنون من خارج ليدخلوها

عليهم ، و يزيلوا تحصنهم بها ، وليتسع مجال القتال ، و يكون فى ذلك عظيم التنكيل والغيظ لهم .

ثم ذكر مايجب أن يجعله العاقل نُصْبَ عينيه من عظة واعتبار فقال :

(فاعتبروا يا أولى الأبصار) أى فاتعظوا ياذوى البصائر السليمة ، والعقول الراجحة ، بما جرى لهؤلاء من أمور عظام ، و بلاء ما كان يخطر لهم ببال ، بأسباب تحار فى فهمها العقول ، ولا يصل إلى كنه حقيقتها ذوو الآراء الحصيفة ، وابتعدوا عن الكفر والمعاصى التى أوقعتهم فى هذه المهالك ، فالسعيد من وُعِظ بغيره ، و إيا كم والغدر ، والاعتماد على غير الله ، فما اعتمد أحد على غيره إلا ذلّ .

ثم بين أن الجلاء الذى كتب عليهم كان أخف من القتل والأسر فقال :

(ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار) أى ولولا أن الله قدّر جلاءهم من المدينة ، وخروجهم من أوطانهم على هذا الوجه المهين ، لعذبهم فى الدنيا بما هو أفظع منه من قتلٍ وأسر كما فعل مع المشركين فى وقعة بدر ، وكما فعل مع بنى قُرَيظة فى سنة خمس للهجرة ، كفاء غدرهم وخيانتهم ، وتأليب المشركين على المؤمنين ، والسعى فى إطفاء نور الإسلام حتى لا تقوم لهم قائمة — إلى ما أعد لهم من عذاب مقيم ، ونكال وجحيم ، حين تقوم الساعة، وتجازى كل نفس بما كسبت .

ثم بين السبب فيما حل بهم وذكر علته فقال :

(ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى إنه إنما فعل ذلك بهم ، وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين ، لأنهم خالفوا الله ورسوله ، وكذبوا بما أنزله على رسله المتقدمين من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

ثم ذكر مآل من يعادى الله ورسوله فقال :

(ومن يشاقّ الله فإن الله شديد العقاب) أى ومن يعاد الله فإن الله يعاقبه أشد العقاب ، و ينزل به الخزى والهوان فى الدنيا ، والنكال السرمدى فى الآخرة .

ثم ذكر أن كل شئ بقضاء الله وقدره فقال :

(ماقطعتم من لينة أوتركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) أى أىّ شئ قطعتموه من النخل أو أبقيتموه كما كان ولم تتعرضوا له بشئ فذلك بأمر الله الذى بلّغه إليكم رسوله لتطهر البلاد من شرورهم .

روى أنه عليه الصلاة والسلام حين أمر بقطع نخلهم وحرقه قالوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض ، فما بال قطع النخل وتحريقها ، وكان فى أنفس المؤمنين من ذلك شئ ؟ فقالوا للسألنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله الآية :

(وليخزى الفاسقين) أى فعل ذلك ليعزّ المؤمنين ، وليخزى الفاسقين ، ويذلهم ويزيد غيظهم ، ويضاعف حسرتهم ، بنفاذ حكم أعدائهم فى أعزّ أموالهم .

والخلاصة — إنكم بأمر الله قطعتم ، ولم يكن ذلك فساداً بل نعمة من الله ، ليخزيهم ويذلهم بسبب فسقهم وخروجهم من طاعة الله ومخالفة أمره ونهيه .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) .

شرح المفردات

قال المبرد: يقال فاء يفىء إذا رجع ، وأفاءه الله إليه: أى رده وصيره إليه ، والفىء شرعا : ما أخذ من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بنى النضير ، ويقال وجف الفرس والبعير يجف وجفاً ووجيفاً : إذا أسرع ، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع ؛ والركاب : ما يركب من الإبل، واحدتها راحلة ، ولا واحد لها من لفظها ، والعرب لاتطلق لفظ الراكب إلا على راكب البعير ، ويسمون راكب الفرس فارساً ، يسلط رسله : أى على أعدائه من غير قتال ولا مصاولة بل بإلقاء الرعب فى القلوب ، فيكون الفىء للرسول يصرفه فى مصارفه التى ستعلمها بعد ، من أهل القرى: أى من أهل البلدان التى تفتح هكذا بلا قتال ، ولذى القربى : أى بنى هاشم و بنى المطلب ، قال المبرد : الدُّولة (بالضم) الشىء الذى يتداوله القوم بينهم يكون كذا مرة وكذا أخرى ، والدَّولة (بالفتح) انتقال حال سارّة من قوم إلى قوم ، أى فالأولى اسم لما يتداول من المال ، والثانية اسم لما ينتقل من الحال ، آتاكم : أى أعطاكم ، وما نهاكم عنه . أى مامنعكم عن فعله .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه ما حلّ ببنى النضير من العذاب العاجل كتخريب بيوتهم بأيديهم وتحريق نخيلهم وتقطيعها ، ثم إجلائهم من بعد ذلك عن الديار إلى الشام دون أن يحملوا إلا القليل من المتاع ـ ذكر هنا حكم ما أخذ من أموالهم ، فجعله فيئا لله ورسوله ينفق منه على أهله نفقة سنة ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكُراع عُدّة فى سبيل الله ، ولا يقسم بين المقاتلة كالغنيمة ، لأنهم لم يقاتلوا لأجله .

روى أن الصحابة رضى الله عنهم طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقسم الفىء بينهم كما قسم الغنيمة فى بدر وغيرها بينهم ، فبين سبحانه الفرق بين

الأمرين ، بأن الغنيمة تكون فيما أتعبتم أنفسكم فى تحصيله وأوجفتم عليه الخيل والركاب ، والفيء فيما لم تتحملوا فى تحصيله تعبا ، وحينئذ يكون أمره مفوّضا إلى الرسول يضعه حيث يشاء .

الإيضاح

(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) أى ماصيره الله إلى رسوله من أموال بنى النضير فهو لله ورسوله ، ولا يجعل غنيمة للجيش يقسم تقسيم الغنائم ، لأنه لم تقاتَل فيه الأعداء بالمبارزة والمصاولة ، بل نزلوا على حكم الرسول فرَقًا ورُعْبا ، ولهذا يصرف فى وجوه البر والمنافع العامة التى ذكرها الله فى هذه الآيات .

أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن عمر بن الخطاب قال : « كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله خاصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكُراع عُدّة فى سبيل الله تعالى » .

(ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) أى ولكن جرت سنة الله أن يسلط رسله على من يشاء من أعدائه ويقذف الرعب فى قلوبهم ، فيستسلمون لهم بلا قتال ولا مصاولة ، كما سلط محمدا صلى الله عليه وسلم على هؤلاء فنزلوا على حكمه دون اقتحام مضايق الخطوب ، ولا مقاومة شدائد الحروب ، فلا حق للمقاتلة فى الفيء بل يكون أمره مفوضا إلى الرسول يصرفه كيف شاء ، ولا يقسمه تقسيم الغنائم .

(والله على كل شىء قدير) فيفعل ما يشاء كما يشاء ، تارة على مايعهد من السنن وأخرى على غير ما يعهد منها كما جرى لبنى النضير من استسلامهم بلا قتال على

منعة حصونهم وكثرة عَددهم وعُددهم من سلاح وكراع ، وما كان المسلمون يظنون أن هذا سيكون .

و بعد أن أتمّ الكلام فى إجلاء بنى النضير وفيئهم أعقبه بالكلام فى حكم ما أفاء الله على رسوله من قرى الكفار عامة فقال :

(ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) أى ما رده الله إلى رسوله من كفار أهل القرى كقُريظة والنَّضير وفَدَك وخَيْبر ، فيصرف فى وجوه البر والخير ولا يقسم تقسيم الغنائم ، بل يعطى للرسول ولذوى قرباه من مؤمنى بنى هاشم و بنى المطلب ، ولليتامى الفقراء ، والمساكين ذوى الحاجة والبؤس ، ولابن السبيل الذى انقطع عنه ماله ، ولا يمكن أن يصل إليه لبعد الشُّقَّة وانقطاع طرق المواصلات ، وقد كان ذلك حين كانت طرق الوصول شاقة ، لكنها الآن سهلة وهى على أساليب شتى ، فيمكن المرء أن يطلب ما شاء بحوالة على أى مصرف فى أى بلد على سطح الكرة الأرضية ، ومن ثم فهذا النوع لا يوجد الآن .

ثم علل هذا التقسيم بقوله :

(كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) أى و إنما حكمنا بذلك وجعلناه مقسما بين هؤلاء المذكورين ، لئلا يأخذه الأغنياء و يتداولوه فيما بينهم ، و يتكاثروا به ، كما كان ذلك دأبهم فى الجاهلية ، ولا يصيب الفقراء من ذلك شىء .

(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) أى وما أعطاكم الرسول من الفىء وغيره فخذوه فهو لكم حلال ، وما نهاكم عنه فابتعدوا عنه ولا تقربوه ، فإن الرسول لا ينطق عن الهوى كما قال سبحانه : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » .

أخرج الشيخان وأبو داود والترمذى فى جماعة عن ابن مسعود قال : « لعن الله

تعالى الواشمات[1] والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب كانت تقرأ القرآن فقالت بلغنى أنك لعنت كيت وكيت، فقال: مالى لا ألعن من لعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو فى كتاب الله عز وجل، فقالت: لقد قرأتُ ما بين لوحى المصحف فما وجدته، قال إن كنت قرأته فقد وجدتِه، أما قرأتِ قوله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» قالت بلى، قال: فإنه صلى الله عليه وسلم قد نهى عنه».

وعن أبى رافع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم متكئاً على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدرى، ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه».

ثم حذرهم من مخالفة أوامر الله ونواهيه فقال:

(واتقوا الله إن الله شديد العقاب) أى واتقوا الله فامتثلوا أوامره، واتركوا نواهيه، فإنه شديد العقاب لمن عصاه، وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه، ورسوله تَرْجُمان عما يريده الله لخير عباده وسعادتهم فى الدنيا والآخرة.

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

---

(١) الوشم: غرز الإبرة فى عضو من الجسم ثم حشوه بالكحل، والمستوشمة: التى تطلب فعل ذلك، والمتنمصة: هى التى تنتف الشعر من الوجه وغيره، والمتفلجة: هى التى تتكلف تفريج ما بين الثنايا بطرق صناعية.

وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) .

شرح المفردات

التبوّأ : النزول فى المكان ، ومنه المباءة للمنزل، والمراد من الدار المدينة ، والمراد بالحاجة الحسد والغيظ ، وأوتوا : أى أعطى المهاجرون دون الأنصار ، ويؤثرون : أى يقدمون و يفضلون ، والخصاصة : الحاجة من خصاص البيت ؛ وهو ما يبقى بين عيدانه من الفُرَج وكذا كل خُرْق فى مُنْخل أو باب أو سحاب أو برقع ، والشح : اللؤم ؛ وهو أن تكون النفس كزّة حريصة على المنع، قال شاعرهم :

يمارس نفسا بين جنبيه كزّة إذا همّ بالمعروف قالت له مهلا

قال الراغب : البخل : المنع ، والشح : الحال النفسية التى تقتضى ذلك ، وغِلًّا أى حسدا و بغضا .

المعنى الجملى

بعد أن بين مصارف الفيء فيما سلف ، وذكر أنه لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين ـ ذكر هنا أنه أراد بهم فقراء المهاجرين الذين لهم هذه الصفات السامية ، والمناقب الرفيعة ، ثم مدح الأنصار ساكنى المدينة و بالغ فى مدحهم فذكر لهم هذه الفضائل :

(١) إنهم يحبون المهاجرين .

(٢) إنهم ليس فى قلوبهم حقد ولا حسد لهم .

(٣) إنهم يفضلونهم على أنفسهم ويعطونهم ماهم فى أشد الحاجة إليه ، وما ذاك إلا لأن الله عصمهم من الشح المردى والبخل المهلك ، الذى يدسى النفوس ويمنعها من اكتساب الخير وعمل البر.

ثم ذكر أن التابعين لهم بإحسان ، وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة ، يدعون لأنفسهم ومن سبقهم من المؤمنين بالمغفرة ، ويطلبون من الله ألا يجعل فى قلوبهم حقدا وحسدا لهم .

الإيضاح

(للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله) أى إنه أراد بهؤلاء الأربعة السالفين فقراء المهاجرين الذين اضطرهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم وترك أموالهم طلبا لمرضاة ربهم ونيلا لثوابه ونصرة لله ورسوله ، وإعلاء لشأن دينه .

(أولئك هم الصادقون) أى هؤلاء هم الصادقون فى إيمانهم ، إذ قد فعلوا مايدل على الإخلاص فيه والرغبة الصادقة من نيل المغفرة والكرامة عند ربهم ، فهم قد أخرجوا من ديارهم ، وهى العزيزة على النفوس ، المحببة إلى القلوب .

بلادى وإن جارت علىّ عزيزة وأهلى وإن ضنوا علىّ كرام

وتركوا الأموال والمال شقيق الروح ، وكثيرًا ما يُقتل المرء فى سبيل الذّود عنه ، وانتزاعه من أيدى غاصبيه ، وما فعلوا ذلك إلا لإعلاء منار الدين ، ورفعة شأنه ، وذيوع ذكره ، فحقّ لهم من ربهم النعيم المقيم ، وجزيل الثواب بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال ، وعظيم الخلال .

روى أن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع ، وكان الرجل يتخذ منهم الخميرة فى الشتاء ماله دثارٌ غيرها . وعن سعيد قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم « بشّروا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، يدخلون الجنة قبل الناس بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة » أخرجه أبوداود .

ثم مدح سبحانه الأنصار وأثنى عليهم حين طابت نفوسهم عن الفيء إذ جعل للمهاجرين دونهم فقال :

(والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) أى والذين سكنوا المدينة ، وأشربت قلوبهم حب الإيمان من قبل هجرة أولئك المهاجرين ، لهم صفات كريمة ، وشيم جليلة تدل على كرم النفس ، ونبل الطباع ، فهم :

(١) يحبون المهاجرين ويتمنون لهم من الخير ما يتمنون لأنفسهم ، وقد آخى رسول الله بينهم وبينهم ، وأسكن المهاجرين فى دور الأنصار معهم ، ونزل بعض الأنصار عن بعض نسائهم للمهاجرين ، طيّبة بذلك نفوسهم ، قريرة به أعينهم .

روى أحمد عن أنس قال : «قال المهاجرون: يارسول الله مارأينا مثل قوم قدمنا عليهم حسن مواساة فى قليل ، ولا حسن بذل فى كثير ، لقد كفونا المئونة ، وأشركونا فى المهيأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال لا ، ماأثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم» .

وقال عمر : وأوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصى بالأنصار خيراً ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم .

(٢) لايطمحون إلى شئ مما أعطيه أولئك المهاجرون من الفئ وغيره .

روى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم ، فقالوا أموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوغير ذلك ؟ قالوا وما ذاك يارسول الله ؟ فقال : هم قوم لايعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم التمر ، فقالوا نعم يارسول الله » .

(٣) يقدمون ذوى الحاجة على أنفسهم ، ويبدءون بسواهم قبلهم ، حتى إن من كان عنده امرأتان ينزل عن إحداهما ويزوجها واحداً من المهاجرين .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال : « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أصابنى الجَهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا ، فقال عليه الصلاة والسلام : ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ؟ فقال أبو طلحة أنا يارسول الله ، فذهب إلى أهله ؛ فقال لامرأته أكرمى ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت والله ماعندى إلا قوت الصبية ، قال إذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم ، وتعالَىْ فأطفئى السراج ونطوى الليلة لضيف رسول الله ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة وأنزل فيهما (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) » .

ثم بين سوء عاقبة الشح فقال :

(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) أى ومن يحفظوا أنفسهم من الحرص على المال والبخل به فأولئك هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه .

أخرج الترمذى وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس مرفوعا « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان نار جهنم فى جوف عبد أبدًا ، ولا يجتمع الإيمان والشح فى قلب عبد أبدًا » .

وأخرج أحمد والبخارى فى الأدب ومسلم والبيهقى عن جابر عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح قد أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » .

وروى الأموى عن ابن مسعود أن رجلا أتاه فقال : إنى أخاف أن أكون قد هلكت ، قال وماذاك ؟ قال : سمعت الله يقول (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) وأنا رجل

شحيح لا أكاد أخرج من يدى شيئاً ؛ فقال ابن مسعود : ليس ذاك الذى ذكر الله تعالى ، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلما ، ولكن ذلك البخل ، وبئس الشئ البخل — ففرق بين الشح والبخل .

وليس المراد من تقوى الشح الجود بكل مايملك ؛ فقد روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « برئ من الشح من أدى الزكاة ، وقرى الضيف ، وأعطى فى النائبة » .

(والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) أى والتابعون للفريقين بالإحسان إلى يوم القيامة يقولون : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، واغفر لإخواننا فى الدين الذين سبقونا بالإيمان .

قال ابن أبى ليلى : الناس على ثلاث منازل : المهاجرين ، والذين تبوءوا الدار والإيمان ، والذين جاءوا من بعدهم ، فاجتهد ألا تخرج من هذه المنازل .

وفى هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ، لأنه جعل لمن بعدهم حظا فى الفئ ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم ، ومن أبغضهم أو أبغض واحدا منهم أواعتقد فيهم شرا فلاحق له فى الفئ .

وإنما بدءوا فى الدعاء بأنفسهم لقوله صلى الله عليه وسلم : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » .

(ولاتجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا) أى ويدعون الله ألا يجعل فى قلوبهم حسدا وحقدا للمؤمنين جميعا .

والحقد والحسد هما رأس كل خطيئة ، وينبوع كل معصية ، فهما يوجبان سفك الدماء والبغى والظلم والسرقة ، وسائر أنواع الفجور .

ونحو الآية قوله فى سورة براءة «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» .

وفى الآية إيماء إلى وجوب محبة مَن تقدمهم من المؤمنين ومراعاة حقوقهم لإخوتهم فى الدين والسبق بالإيمان .

(ربنا إنك رءوف رحيم) أى ربنا إنك عظيم الرأفة بعبادك ، كثير الرحمة لهم ، فأجب دعاءنا .

وفى الآية حثٌّ على الدعاء للصحابة ، وصفاء القلوب من بغض أحد منهم .

وعن ابن عمر أنه سمع رجلا وهو يتناول بعض المهاجرين فقرأ عليه : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ » ثم قال : هؤلاء المهاجرون ، أفمنهم أنت ؟ قال لا ، ثم قرأ عليه « والذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ » الآية ، ثم قال هؤلاء الأنصار فأنت منهم ؟ قال لا ، ثم قرأ عليه : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ » الآية ، ثم قال : أفمن هؤلاء أنت ؟ قال أرجو ، قال : ليس من هؤلاء من سبّ هؤلاء .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ

اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) .

شرح المفردات

نافقوا : أى أظهروا غير ما أضمروا ، وبالغوا فى إخفاء عقائدهم ، والإخوان : الأصدقاء واحدهم أخ ، والأخ من النسب جمعه إخوة ، لننصرنكم : أى لنعاوننكم ، ليولنّ الأدبار : أى ليفرّن هاربين ، أشد رهبة فى صدورهم من الله : أى إنهم يخافونكم فى صدورهم أشد من خوفهم لله ، لايفقهون : أى لايعلمون عظمته تعالى حتى يخشوه حق خشيته ، جميعاً : أى مجتمعين ، محصنة : أى بالدروب والخنادق وغيرها ، جُدُر : أى حيطان واحدها جدار ، بأسهم : أى حربهم ، وشتى : أى متفرقة ، واحدها شتيت ، وبال أمرهم : أى سوء عاقبتهم ، من قولهم : كلأ وبيل : أى وخيم سيئ العاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما حدث لبنى النضير من الاستسلام خوفا ورهبة ، لما قذفه فى قلوبهم من الرعب ، ثم ذكر مصارف الفىء التى تقدمت — أردفه بذكر ماحصل من مناصحة المنافقين عبد الله بن أُبىّ ابن سلول ورفقته لأولئك اليهود ، وتشجيعهم لهم على الدفاع عن ديارهم ومحاربتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قصه الله علينا وفصّله أتمّ تفصيل ، ليكون فى ذلك عبرة لنا ؛ وإنا لنشاهد كل يوم أن الناس يضل بعضهم بعضا ويغوونهم ثم يتركونهم فى حيرة من أمرهم لا يجدون لهم مخلصا مما وقعوا فيه .

أخرج ابن إسحق وابن المنذر وأبو نُعيم عن ابن عباس: أنها نزلت فى رهط من

بنى عوف ، منهم عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسُوَيد وداعس بعثوا إلى بنى النضير بما قصه الله علينا فى كتابه .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً) . تقدم أن قلنا فى غير موضع إن مثل هذا الأسلوب (ألم تر) يراد به التعجيب من حال المحدّث عنه ، وأن أمره غاية فى الغرابة ، وموضع للدهشة والحيرة .

فهؤلاء قوم من منافقى المدينة لهم أقوال تخالف مايبطنون ، منهم عبد الله بن أبيّ وشيعته رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شرع يحاصر بنى النضير ويقاتلهم ، فأرسلوا إليهم يقولون لهم : إنا قادمون لمساعدتكم بخيلنا ورَجْلنا ، ولانُسْلمكم لمحمد أبداً ؛ فجِدّوا فى قتالهم ، ولا تهنوا فى الدفاع عن دياركم وأموالكم ، حتى إذا اشتد الحصار ، وأوغل المسلمون فى الدخول فى ديارهم ، وتحريق نخيلهم ، وهدم بيوتهم رأى بنو النضير أن تلك الوعود كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وأنهم بين أمرين :

(١) الاستسلام وقبول حكم محمد عليهم .

(٢) إفناؤهم وتخريب ديارهم .

وقد أدخل الله الرعب فى قلوبهم ، فاختاروا الدنيّة ، وقبلوا الجلاء عن الديار واستبان لهم أن المنافقين كانوا كاذبين لاعهود لهم ولا وعود ، كما هو دأبهم فى كل زمان ومكان .

و بعد أن كذبهم على سبيل الإجمال كذبهم تفصيلا ليزيد تعجيب المخاطب من حالهم ، وليبين له مبلغ خبث طويّتهم ، وشدة جبنهم ، وفزعهم من القتال ، وأن هذه الوعود أقوال كاذبة لا كتها ألسنتهم وقلوبهم منها بَراء فقال :

(لئن أخرجوا لايخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لاينصرون) أى لئن أُخرجَ بنو النضير من ديارهم فأجْلوا عنها لايخرج معهم المنافقون الذين وعدوهم بالخروج من ديارهم ، ولئن قاتلهم محمد صلى الله عليه وسلم لاينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولُّن الأدبار منهزمين عن محمد وأصحابه ، هارب بين منهم خاذلين لهم ، ثم لاينصر الله بنى النضير .

وهذا إخبار بالغيب ، ودليل من دلائل النبوة ، ووجه من وجوه الإعجاز ، فإنه قد كان الأمر كما أخبر الله قبل وقوعه .

والخلاصة — إن بنى النضير أُخرجوا فلم يخرج معهم المنافقون ، وقوتلوا فما نصروهم ، ولو كانوا قد نصروهم لتركوا النصرة وانهزموا وتركوا أولئك اليهود فى أيدى الأعداء .

ثم ذكر السبب فى عدم نصرتهم لليهود والدخول مع المؤمنين فى قتال فقال :

(لأنتم أشدّ رهبة فى صدورهم من الله) أى إنهم يخافونكم أشد مما يخافون الله ، ومن ثمّ لم يجرءوا على الدخول معكم فى قتال ، وأسلموا اليهود يحكم عليهم الرسول بما يشاء .

ثم ذكر سبب الرهبة لهم من دون الله فقال :

(ذلك بأنهم قوم لايفقهون) أى وكانت هذه الرهبة لكم فى صدورهم أشد من رهبتهم لله من أجل أنهم لايفقهون قدر عظمته تعالى ، فهم لذلك يستخفّون بمعاصيه ولا يرهبون عقابه قدر رهبتهم لكم .

ونحو الآية قوله : « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً » .

ثم أكد جبن اليهود والمنافقين وشديد خوفهم منهم فقال :

(لايقاتلونكم جميعا إلا فى قرًى محصنة أو من وراء جُدُر) أى إن هؤلاء اليهود

والمنافقين قد ألقى الرعب فى قلوبهم، فلا يواجهونكم بقتال مجتمعين، لأن الخوف والهلع بلغا منهم كل مبلغ ، بل يقاتلونكم فى قرى محصنة بالدروب والخنادق ونحوها ، ومن وراء الجدر والحيطان وهم محاصَرون .

ثم بين أن من أسباب هذا الجبن والخوف ـ التخاذل وعدم الاتحاد حين اشتداد الخطوب فقال :

(بأسهم بينهم شديد) أى بعضهم عدوّ لبعض ، فلا يمكن أن يقاتلوا عدوا لهم وهم فى تخاذل وانحلال ، ومن ثم استكانوا وذلوا .

وفى هذا عبرة للمسلمين فى كل زمان ومكان ، فإن الدول الإسلامية ما هدّ كيانها ، وأضعفها أمام أعدائها إلا تخاذلها أفرادا وجماعات ، وانفراط عِقْد وحدتها ، ومن ثم طمع الأعداء فى بلادهم ودخلوها فاتحين وأذاقوا أهلها كؤوس الذل والهوان وفرّقوهم شَذَرَ مذَرَ ، وجعلوهم عبيدا أذلاء فى بلادهم والتهموا ثرواتهم ، ولم يبقوا لهم إلا النُّفاية وفُتات الموائد . ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ، وعسى الله أن يأتى بالفتح أو نصر من عنده ، فيستيقظ المسلمون من سُباتهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، فيستعيدوا سابق مجدهم ، وتدول الدولة لهم :

فيوما لنا ويوما علينا ويوما نُساء ويوما نُسرّ

ثم زاد ما سلف توكيدا فقال :

(تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) أى إنك أيها الرسول إذا رأيتهم مجتمعين خِلْتهم متفقين وهم مختلفون غاية الاختلاف ، لما بينهم من إحَن وعداوات ، فهم لا يتعاضدون ولا يتساندون ولا يرمون عن قوس واحدة .

وفى هذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم ، وحثٌّ للعزائم الصادقة على حربهم ، فإن المقاتل متى عرف ضعف خصمه ازداد نشاطا وازدادت حميّته وكان ذلك من أسباب نصرته عليه .

ثم بين أسباب النفرة وانحلال الوحدة فقال :

(ذلك بأنهم قوم لايعقلون) أى ذلك التفرق من جرّاء أن أفئدتهم هواء ، فهم قوم لايفقهون سر نظم هذه الحياة ، ولا يعلمون أن الوحدة هى سر النجاح ، ومن ثم تخاذلوا وتفرقت كلمتهم ، واختلف جمعهم ، واستهان بهم عدوهم ، ودارت عليهم الدائرة .

ثم أرشد إلى أن هؤلاء ليسوا ببدع فى الكافرين ، بل قد سبقهم غيرهم ممن كان حقه أن يكون عبرة لهم فقال :

(كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم) أى مثل بنى النضير مثل اليهود من بنى قَينُقَاع الذين كانوا حول المدينة وغزاهم النبى صلى الله عليه وسلم يوم السبت فى شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة وأجلاهم إلى أذرعات بالشام ، وذاقوا سوء عاقبة كفرهم إثر عصيانهم قبل وقعة بنى النضير التى كانت سنة أربع للهجرة .

والخلاصة — إنهم قد كانت لهم أسوة ببنى قينقاع ، فجروحهم لاتزال دامية ، وآثار خذلانهم لاتزال بادية للعيان ، وقد كان من حق ذلك أن يكون عبرة ماثلة لهم ولكنهم قوم لايفقهون ولا يعتبرون بالمثلات التى يرونها رأى العين .

(ولهم عذاب أليم) لا يقادر قدره ، ولا يعرف كنهه سوى علام الغيوب .

ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلا آخر أشد نكالا وأوجع إيلاما فقال :

(كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين) أى مثل هؤلاء المنافقين الذين وعدوا اليهود من بنى النضير النصرة إن قوتلوا ، أو الخروج معهم إن أُخرجوا ، ومثل بنى النضير فى غرورهم بوعودهم وإسلامهم إياهم فى أشد حاجتهم إليهم وإلى نصرتهم — كمثل الشيطان الذى غرّ إنسانا ووعده النصرة عند الحاجة إليه إذا هو كفر بالله واتبعه وأطاعه ، فلما احتاج إلى نصرته أسلمه وتبرأ منه وقال : إنى أخاف الله رب العالمين إذا أنا نصرتك ، لئلا يشركنى معك فى العذاب .

والخلاصة — إن مثل اليهود فى اغترارهم بمن وعدوهم النصرة من المنافقين بقولهم لهم : لئن قوتلتم لننصرنكم ، ولما جدّ الجدّ واشتد الحصار والقتال تخلَّوْا عنهم وأسلموهم للهَلَكة ـ كمثل الشيطان إذ سوّل للإنسان الكفر والعصيان ، فلما دخل فيه تبرأ منه وتنصل وقال : « إنى أخاف الله رب العالمين » .

ولا تجد مثلا أشد وقعا على النفوس ، ولا أنكى جُرحا فى القلوب من هذا المثل ، لمن اعتبر وادّكر ، ولكنهم قوم لا يعقلون .

ثم ذكر عاقبة الناصح والمنصوح فقال :

(فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدَين فيها ، وذلك جزاء الظالمين) أى فكان عاقبة الآمر بالكفر والداخل فيه ـ الخلود فى النار أبدا ، وهكذا جزاء الظالمين لأنفسهم بالكفر كيهود بنى النضير والمنافقين الذين وعدوهم بالنصرة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) .

شرح المفردات

ما قدمت : أى أىّ شىء قدمت ، وغد : هو يوم القيامة ؛ سمى بذلك لقربه ، فكل آت قريب كما قال : وإن غداً لناظره قريب . نسوا الله : أى نسوا حقه فتركوا أوامره، ولم ينتهوا عن نواهيه ، فأنساهم أنفسهم : أى أنساهم حظوظ أنفسهم فلم يقدموا لها خيرا ينفعها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر المضلين من المنافقين ، و بيّن أن ما يقولون غير ما يبطنون ، وأن مثلهم كمثل الشيطان فى الإغواء والإضلال ، ثم أعقبه بذكر الضالين من بنى النضير وكيف خُدِعوا بتلك الوعود الخلاّبة التى كانت عليهم وبالا ونكالا ، وكان فيها سوء حالهم فى دنياهم ودينهم - شرع ينصح المؤمنين بلزوم التقوى ، وأن يعملوا فى دنياهم ما ينفعهم فى أخراهم حتى ينالوا الثواب العظيم ، والنعيم المقيم ، وألا ينسَوْا حقوق الله ، فيجعل الرين على قلوبهم ، فلا يقدموا لأنفسهم ما به رشادهم وفلاحهم .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله) فافعلوا ما به أمر ، واتركوا ما عنه نهى وزجر .

(ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ) أى وانتظروا ماذا قدمتم لآخرتكم مما ينفعكم يوم الحساب والجزاء ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكنهم من توقع العذاب حيارى .

(واتقوا الله) تكرير للتوكيد ، لما يستدعيه الحال من التنبيه والحث على التقوى التى هى الزاد فى المعاد .

ثم وعد وأوعد و بشر وأنذر فقال :

(إن الله خبير بما تعملون) أى إنه تعالى عليم بأحوالكم لا يخفى عليه شىء من شئونكم ، فراقبوه فى جليل أعمالكم وحقيرها ، واعلموا أنه سبحانه سيحاسبكم على النقير والقطمير ، والقليل والكثير ، ولا يفوته شىء من ذلك .

ثم ضرب لهم الأمثال تحذيرا و إنذارا فقال :

(ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) أى ولا يكن حالكم كحال قوم تركوا العمل بحقوق الله التى أوجبها على عباده ، فران على قلوبهم وأنساهم العمل

الصالح الذى ينجيهم من عقابه ، فضلوا ضلالا بعيدا ، فجازاهم بما هم له أهل ، وما هم مستحقون ، جزاء وفاقا لما دسّوا به أنفسهم وأوقعوها فى المعاصى والآثام ، ومن ثم حكم عليهم بالهلاك فقال :

(أولئك هم الفاسقون) أى أولئك هم الذين خرجوا من طاعة الله فاستحقوا عقابه يوم القيامة .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

خطب أبو بكر فقال : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله عز وجل فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بتوفيق الله عز وجل ، إن قوما جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله عز وجل أن تكونوا أمثالهم فقال : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدّموا فى أيام سلفهم ، وخلوا بالشّقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن ، وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لاتفنى عجائبه ، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه . إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى : « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » لاخير فى قول لايراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لاينفق فى سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم .

ثم وازن بين من يعمل الحسنات ، ومن يجترم السيئات فقال :

(لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) أى لايستوى الذين نسوا الله فاستحقوا الخلود فى النار ، والذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود فى الجنة .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » وقوله : « أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ » .

ثم بين عدم استوائهما فقال :

(أصحاب الجنة هم الفائزون) أى أصحاب الجنة هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه .

وفى هذا تنبيه إلى أن الناس لفرط غفلتهم وقلة تفكرهم فى العاقبة ، وتهالكهم على إيثار العاجلة ، واتباعهم للشهوات الفانية ، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار ، وشاسع البون بين أصحابهما ، وأن الفوز لأصحاب الجنة ، فمن حقهم أن يعلموا ذلك بعد أن نُبِّهوا له ، كما تقول لمن عقّ أباه : هو أبوك ـ تجعله كأنه لا يعرف ذلك فتنبهه إلى حق الأبوة الذى يقتضى البر والعطف .

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) .

شرح المفردات

خاشعا : أى منقادا متذللا ، متصدعا : أى متشققا ، خشية الله : أى خوفه وشديد عقابه ، الغيب : ما غاب عن الحسّ من العوالم التى لانراها ، والشهادة : ما حضر من الأجرام المادية التى نشاهدها ، القدوس : أى المنزه عن النقص ، السلام : أى الذى سلم الخلق من ظلمه إذ جعلهم على نُظُمٍ كفيلة برقيهم ، المؤمن : أى واهب الأمن ، فكل مخلوق يعيش فى أمن ؛ فالطائر فى جوّه ، والحية فى وكرها ، والسمك فى البحر تعيش كذلك ، ولا يعيش قوم على الأرض مالم يكن هناك حراس يحرسون قراهم وإلا هلكوا ، العزيز : أى الغالب على أمره ، الجبار : أى الذى جبر خلقه على ما أراد وقسرهم عليه ، المتكبر : أى البليغ الكبرياء والعظمة ، سبحان الله عما يشركون : أى تنزه ربنا عما يصفه به المشركون ، الخالق : أى المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة ، والبارئ : أى المبرز لها على صفحة الوجود بحسب السنن التى وضعها والغرض الذى خلقت له ، المصوّر : أى الموجد للأشياء على صورها ومختلف أشكالها كما أراد ، الأسماء الحسنى. أى الأسماء الدالة على محاسن المعانى التى تظهر فى مظاهر هذا الوجود ، فنظم هذه الحياة وبدائع مافيها دليل على كمال صفاته ، وكمال الصفة يرشد إلى كمال الموصوف .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فرق المضنين من المنافقين والضالين من اليهود وغيرهم وأمر عباده المؤمنين بالتقوى ، استعدادا ليوم القيامة ـ ذكر هنا أن لهم مرشدا عظيما وإماما هاديا هو القرآن الذى يجب أن تخشع لهيبته القلوب ، وتتصدع لدى سماع عظاته الأفئدة ، لما فيه من وعد ووعيد وبشارة وإنذار وحكم وأحكام ، فلو أنا ألهمنا الجبل عقلا وفهما وتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل ، فكيف بكم

أيها البشر لاتلين قلوبكم ولا تخشع وتتصدع من خشيته ؟ وقد فهمتم عن الله أمره ، وتدبرتم كتابه .

و بعد أن وصف القرآن بالعظم أتبعه بوصف عظمة المنزِّل للقرآن ذى الأسماء الحسنى الذى يخضع له ما فى السموات والأرض و ينقادون لحكمه وأمره ونهيه .

الإيضاح

(لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدّعا من خشية الله) أى لو جعل فى الجبل عقل كما جعل فيكم أيها البشر ، ثم أنزل عليه القرآن لخشع وخضع وتشقق من خشية الله .

وهذا تمثيل لعلوّ شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر ، وفيه توبيخ للإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه حين قراءة القرآن وتدبر ما فيه من القوارع التى تذل لها الجبال الراسيات .

(وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) أى وهذه الأمثال التى أودعناها القرآن وذكرناها فى مواضعها التى ضربت لأجلها ، واقتضاها الحال من نحو قوله : « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » وقوله : «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْأَشَدُّ قَسْوَةً » وقوله : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى » الآية — جعلناها تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أوألقى السمع وهو شهيد ؛ فمن الناس من وفقه الله واهتدى بها إلى سواء السبيل ، وفاز بما يرضى ربه عنه ، ومنهم من أعرض عنها ونأى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، وأدخله فى سقر ، وما أدراك ماسقر ، لاتبقى ولاتذر .

ثم وصف سبحانه نفسه بجليل الصفات ، التى هى سر العظمة والجلال ، لخالق الأرض والسموات فقال :

(هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) أى إنه لارب غيره ، ولا إله فى الوجود سواه ، فكل مايعبد من دونه من شجر أو حجر أو صنم أو ملك فهو باطل ، وهو يعلم جميع الكائنات الشاهدة لنا والغائبة عنا ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السموات ، وهو ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

(هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) أى هو الله المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة ، المنزه عن كل عيب ونقص ، الذى أمن خلقه أن يظلمهم ، وهو الرقيب عليهم كما قال «وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ» وقال : «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» والذى عز كل شىء فقهره ، وغلب الأشياء بعظمته وجبروته ، فلا تليق الجبرية إلا له ولا التكبر إلا لعظمته كما ورد فى الصحيح : «العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبته» تنزه ربنا عما يقوله المشركون من الصاحبة والولد فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

(هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى) أى هو الله الخالق لجميع الأشياء المبرز لها إلى عالم الوجود على الصفة التى أرادها كما قال : «فِى أَىِّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ» ، وله الصفات الحسنى التى وصف بها نفسه لا يشركه فيها أحد سواه .

(يسبح له مافى السموات والأرض) تقدم الكلام فى هذا فى مثل قوله : «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو الشديد الانتقام من أعدائه ، الحكيم فى تدبير خلقه ، وصرفهم فيما فيه صلاحهم ، فهو كامل القدرة كامل العلم .

اللهم وفقنا للهدى والرشاد فى يوم المعاد .

خلاصة ماحوته السورة الكريمة من المقاصد والأغراض

(١) تنزيه الله لنفسه عن كل نقص .

(٢) ذكر غلبة الله ورسوله لأعدائه .

(٣) تقسيم الفىء الذى أخذ من بنى النضير مع ذكر المصارف التى يوضع فيها .

(٤) أخلاق المنافقين المضلين ، وأخلاق أهل الكتاب الضالين مع ضرب المَثَل لهم .

(٥) ذكر نصائح للمؤمنين .

(٦) إعظام شأن القرآن وإجلال قدره .

(٧) وصف الله سبحانه نفسه بأوصاف الجلال والكمال .